منهج

تدبر القرآن الكريم

في ظل جدلية النص والعقل والواقع

الدكتور يونس ملال أستاذ محاضر في العقيدة والتفسير
ومسؤول تخصص التفسير وعلوم القرآن
الجامعة الإفريقية بأدرار الجزائر

توطئة:

تدبر القرآن الكريم وتفهّم معانيه ومقاصده أمر رباني قال تعالى: ﴿ **كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩** ﴾ ، وعدم تدبره هو نوع هجران للكتاب العزيز.

والقرآن العظيم أساس الإسلام الأول الذي على أساس هداياته يجب على المسلمين إقامة فكرهم وسلوكهم وأسلوب حياتهم، وهجران الأمة الإسلامية الحاصل اليوم في علاقتها مع القرآن مصيبة لا عزاء لها فيها، ومع الأسى والأسف فإن سوادا عظيما من مسلمي اليوم "**صلتهم بالقرآن لا تغسل من نفوسهم درنا بله أن يغسلوا هم أدران الآخرين، إنهم اتخذوا القرآن مهجورا وأقاموا حجابا كثيفا بين تعاليم القرآن وبين ما يدّعون وما يشتهون**"[1] "..**اتخذوا القرآن مهجورا فهم لا يعكفون على دراسته ولا يستقصون دلالاته، ولا يوائمون بين مجتمعهم وبين شرحه المستفيض لرسالة الحياة الصحيحة وواجبات الأحياء.**"[2]

وما يظنه بعض المسلمين من أن مجرد التلاوة أو تعليق بعض الآيات على الجدران أو التبرك بالقرآن مبرئا لهم من وصمة الهجران خطأ فادح، إذ "**لا غناء في مصحف في جيب ولا في مصحف معلق على جدار، ولا غناء في همهمة قارئ مذهول، ولا مطرق تملأ الأصوات أذنيه ولا فقه عنده.. إن رحمة القرآن الكامنة فيه يظفر بها أهل الوعي والتدبر والعمل.**"[3] وإذا الغاية القصوى من التدبر هي الاهتداء بالقرآن والاستنارة بنوره فما أحوجنا إلى معرفة **معالم المنهج الصحيح لتدبر القرآن والتفكر فيه** بما يحقق هذه المقاصد ويرفع الأغشية والعوائق.

وحين نحلل عملية التدبر سوف نجد أننا أمام ثلاثة عناصر أساسية هي:

١. النص القرآني: محل تدبر مادته.

٢. الإنسان (المسلم): المتدبر في معاني القرآن، وليس له من أداة في إدراك المعاني إلا فؤاده (العقل والقلب).

٣. الواقع: الذي تتنزل معاني القرآن عليه باستمرار إلى يوم الدين كونه خطاب الله الخالد..

وكشف معالم منهج التدبر القويم هو ـ في تصوري ـ الوقوف على تلك الطريقة التي تتفاعل ضمنها هذه العناصر الثلاثة تفاعلا إيجابيا دون أن يحيف طرف على آخر أو يتجاوز حدوده أو يقصر عن بلوغ هذه الحدود، وما يجب لذلك كله من شروط موضوعية وأخلاقية..

---

[1] – الإسلام والطاقات المعطلة ، محمد الغزالي ، دار القلم ،دمشق ،ط٢،٢٠٠٥م ،ص ٦٤

[2] – نظرات في القرآن ،محمد الغزالي ،ص ١٥٣.

[3] – الإسلام والطاقات المعطلة، محمد الغزالي، ص ٦٣.

العنصر الأول: طبيعة القرآن الكريم ومنهج التدبر

القرآن الكريم نص إلهي معروف البناء، محدود السور والآيات والكلمات والحروف، لا يزيد فيه حرف ولا ينقص منه حرف، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ ، لكنه في الوقت عينه لامتناهي الإيحاء والهداية وتجدد العطاء والمعاني، وهذه خصيصة لا يشاركه فيها أي نص، إذ إنها من مظاهر إعجازه ومتأتية من كونه الوحي الخاتم، أي هو كلمة الله الوحيدة الباقية على ظهر الأرض سراجا ينير حياة الناس.

ومنهج الفهم والتدبر الذي يقف بالفهم عند ظواهر الآيات، أو عند فترة زمنية معينة أو أشخاص معينين أو سقف معرفي لثقافة معينة في فترة ما لا يمكنه أن يدرك **خاصية الهداية القرآنية المفتوحة**، كما يحد منها منهج التدبر الذي لا يفهم معاني القرآن إلا من خلال النقول وتكرير ما قيل في حقبة زمنية بعينها.

والذي ينسجم مع هذه الخاصية في طبيعة القرآن العظيم، هو منهج التدبر الذي يرى القرآن نورا مستمرا وإرشادا غضا ودائما، لا يقف عند زمن أو قضية أو شخص، لأنه منهج مفتوح على المعرفة المتجددة، وعلى حاجات الأمة.

وأزيد هذه المسألة بيانا بالقول: إن الموضوعات التي تنجم عن هذا المنهج في التدبر نوعان:

١- موضوعات واردة على القرآن.

٢- موضوعات صادرة عن القرآن.

وكلاهما يتلاءم وطبيعة القرآن .

١. الموضوعات الواردة على القرآن: أعني أن الإنسان بحكم نسبيته وعيشه في إطار المكان والزمان، وارتباطه بالواقع والتاريخ، ترد عليه مسائل وقضايا، كما تعترضه مشكلات عديدة، سواء في الحياة العملية أو العلمية، وسواء في الموضوعات الكلية أو الجزئية، كان ذلك جزءا مما يعرضه البناء الثقافي الداخلي، أم جزءا مما يعرضه التحدي المعرفي لدى الأمم الأخرى، **فوظيفة القرآن الكريم أمام ما يلح على الإنسان من قضايا عصره، أن يقدم له إجابات وهدايات تزيح عنه حيرته، وتهديه سبل السلام.**

فالمتدبر يعرض الموضوع بحيثياته الواقعية على القرآن الكريم، ويستوحي منه الرؤية الصحيحة والتوجيه الكامل، وقد روي عن سيدنا عمر بن الخطاب . رضي الله عنه . قوله: " **لو ضاعت مني إبرة وبحثت عنها في القرآن لوجدتها"**، وقريب من ذلك ما روي عن ابن عباس " **لو ضاع مني عقال لوجدته في القرآن"**[٤]، ولا يفهم عاقل من هذا الكلام أن القرآن خزانة تحفظ فيها الأشياء الضائعة! بل

---

[٤] – لم أقف على تخريج الأثرين رغم شهرتهما.

يعني ذلك، أن في القرآن القدرة على تزويد الإنسان بما يحتاج من الهداية والإرشاد وتزويده بالمنهج والمفاتيح، مهما ظهر أن ذلك الموضوع بعيد عنه.

والقرآن لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه ، ولا تزيده الأيام إلا رفعة وجدة ، كما ورد في الأثر عن الإمام علي – رضي الله عنه – في وصف القرآن: **" كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، من ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.."**[٥]. ولم أر في وصف **فضاء القرآن المفتوح** على الهداية والإرشاد أبلغ من هذا الكلام، إنه يعبر ببلاغة نادرة عن كون القرآن الكريم متعاليا عن حدود الزمان عاما وشاملا لكل ما يمكن أن يجد من القضايا التي تتحول باستمرار إلى أدلة على خلود القرآن.

٢ – الموضوعات الصادرة عن القرآن: لا تقف عجائب القرآن عند حد الجواب عن الاستفهامات المتجددة، بل إن للقرآن الكريم دورا أساسيا في إنتاج المعرفة، ولذلك هو " كريم "، فإذا جئت تقف على باب الوحي تستفهم عن جواب لسؤالك، زودك بالجواب، وزاد على ذلك أن يفتح لك آفاقا جديدة للمعرفة.

بهذا المعنى يكون القرآن نفسه مصدرا ملهما للأفكار، مثيرا للقضايا، ومعمقا وهاديا للبحث فيها، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ ، وآيات النظر والتأمل والسير في الأرض كثيرة محفوظة، ترك القرآن مجال البحث فيها مفتوحا، ومثال ذلك قصص الأنبياء والأمم السابقة وعلاقة ذلك بعلم الآثار، فلقد كنت ولا أزال مندهشا كيف يسعى علماء الآثار في الغرب إلى البحث عن مواقع الحضارات القديمة بناء على أمثال إلياذة لهوميروس أو قصيدة أو أسطورة يونانية قديمة، ولا يسعى علماء الآثار المسلمون إلى الكشف عن بقايا حضارات عاد وثمود وقوم لوط وسائر الرسل والأمم المذكورة في القرآن – إلا قليلا – ، مع أنه المصدر الحق المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.[٦]

---

٥ – حديث حسن، رواه الترمذي والدارمي وغيرهما عن علي رضي الله عنه، والأصح وقفه على الإمام علي والله أعلم. قال عنه الإمام المحدث ابن كثير في فضائل القرآن: الحديث مشهور من رواية ابن الأعور وقد تكلموا فيه قال الترمذي: حديث لا نعرفه إلا من هذه الوجه وإسناده مجهول وفي الحارث مقال.. قال بعض الباحثين: قصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وقد وهم بعضهم في رفعه وهو كلام حسن صحيح.

٦ – بل أظهر بعض الباحثين مهارة في تزييف الحقيقة ونفيها عن القصص القرآني، والقول إنه نوع من الأسطورة فظاهروا بذلك قول المشركين في القرآن بأنه أساطير الأولين، كما ادعى ذلك محمد أحمد خلف الله في رسالته للدكتوراه عن الفن القصصي في القرآن الكريم، التي رفضتها اللجنة العلمية، ثم طبعت في كتاب، أثار زوبعة من الجدل، وقد علمت من أستاذنا الدكتور عبد الحليم عويس أن الرجل عاش ومات مركسيا ولم تعلم عنه توبة والله أعلم بالسرائر.

ولعل من فوائد التدبر في موضوعات القرآن الكريم وثمراته ملاحظة الأولويات، فما اهتم به القرآن وجعله أصلا يجعله الباحث في ثنايا معاني القرآن أصلا ومحل اهتمام، وما جعله القرآن عابرا يجعله عابرا، "**بمعنى أن نتخذ من القرآن معيارا لمدى أهمية الشيء أو عدمها. فما عني القرآن بذكره من المعاني والموضوعات، وجعله في بؤرة اهتمامه، وكرر الحديث عنه، بصورة و أخرى ، وبأسلوب وآخر ، يجب أن يأخذ من عنايتنا واهتمامنا المكان اللائق به في الفكر والشعور والسلوك وأن يكون لذلك أثره العملي في ميادين التثقيف والتربية والتشريع، اقتداء بالقرآن** "[٧] ولا يتأتى هذا الأمر إلا بمنهج التدبر الموضوعي الكلي الذي يحيط بموضوع ما من خلال القرآن الكريم ويستوعبه مستصحبا أن القرآن كتاب الهداية في كل آن.

من أجل هذا يمكن القول: كما توجد موضوعات ينتجها الواقع والخبرة في الحياة، توجد كذلك موضوعات تتولد نتيجة التدبر لمعاني القرآن الكريم، وكثرة التردد عليه والمعايشة له.

فالقرآن هو الكتاب الذي استوعب كل جوانب الحياة، بكل ما تحمل هذه الكلمة من المعاني، فإذا تدبر فيه علماء العقيدة والشريعة، أو علماء الكون والأحياء، أو علماء النفس والاجتماع، أو علماء الحضارة والتاريخ.. رجع كل منهم بزاد يعينه على فهم تخصصه والإبداع فيه، فهو كالنهر الجاري كل يأخذ منه بقدر وعائه، وفي إطار تخصصه وعلى مقدار فهمه لجانب ما من جوانب الحياة وزاوية ما من زوايا معرفة الكون وأسراره.

وهذه الخاصية تجعل التدبر الكلي لموضوعات القرآن الكريم ، تفسيرا وفهما حيويا وعميقا **يمتلك معرفة مفتوحة على النص وعلى الواقع على حد سواء.**

وحيوية منهج التدبر الذي يراعي هذه الطبيعة القرآنية، هي حيوية مطلقة لا تنفد مستقاة من حيوية القرآن الكريم نفسه، الذي لا يتناهى عطاؤه، فكلما جد أو استحدث موضوع، انبرى أهل الاختصاص له يغرفون من هدايات القرآن ويستفيدون من توجيهاته، مهما كان هذا الموضوع مرتبطا بالشرع وحقائقه، أو بالكون ودقائقه، أو بالإنسان في خلقه وأخلاقه، أو بالأمة في عمرانها وتمكينها أو غير ذلك.

فانظر كيف يبحث الأوروبيون عن قشة حقيقة في ركام أساطير وأباطيل إلياذة هوميروس مثلا، وكيف يوجه بعض الباحثين العرب اجتهاداتهم لنفي الحقيقة عن أخبار القرآن التي قال فيها تعالى القصص الحق. بدل تقصيها وتتبعها في آفاق الأرض وفجاجها!

[٧] – كيف نتعامل مع القرآن الكريم ، يوسف القرضاوي ، ص٤٥١.

العنصر الثاني: المتدبر ومنهج التدبر في القرآن الكريم

لتدبر القرآن وتفهم معانيه عظمة مستمدة من عظمة القرآن نفسه وقديما قال سلفنا إن التفسير هو الرواية عن الله**!** والإقبال على كلام الله بالشرح وبيان المراد على قدر الوسع ليس كإقبال على أي كلام، من هنا قال أبو حامد الغزالي: " **فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه.. ولو لا استتار كنه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره.**"[٨]

إن عظمة القرآن الكريم وتقديسه هو من عظمة الله الكبير المتعال وتقديس ذاته، واستصحاب هذه العظمة عند تدبر القرآن يلقي في روح المتدبر هيبة وحذرا وطاقة نفسية تبعث فيه النشاط كي لا يألو جهدا في سبيل الوصول إلى المعاني الصحيحة والهدايات المتيقنة من القرآن وتهذيب النفس بها أو تقديمها للناس في أحسن وجه، وقد نبه الإمام ابن تيمية على بعض هذا المعنى بالقول: "**على المسلم في تفسير القرآن أن يشعر نفسه حين يفسره بأنه مترجم عن الله تعالى، شاهد عليه بما أراد من كلامه، فيكون معظما لهذه الشهادة، خائفا أن يقول على الله بلا علم، فيقع فيما حرم الله، فيجزى بذلك يوم القيامة.**"[٩]

من هنا فتناول معاني القرآن ليس ساحة مستباحة، فلا ينبغي لأي كان أن يتهجم على القول في القرآن بلا علم أو بمحض الظن والتخرص فيكون مخطأ وإن أصاب المعنى، آثما وإن حسن الظن به، فمن فعل ذلك فقد هوى بنفسه في جهنم والعياذ بالله، لافتئاته على الله، كما قال عليه الصلاة والسلام: "**من فسر القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار.**"[١٠]

ولقد رأينا ـ ضمن سير الصحابة وتاريخ الإسلام ـ من كبار الصحابة والتابعين من علماء السلف من تورع عن القول في القرآن بغير النقل والرواية عن الرسول عليه الصلاة والسلام فكيف إذا لم يستند الفهم لا إلى رواية ثابتة ولا إلى دراية صحيحة؟

ورأينا أيضا حين استيسر الناس القول في القرآن بالهوى، كيف تمزقت في التاريخ مزقا كل فرقة تُجري على لسان القرآن ما تهواه أو تعتقده أو تجد فيه مصلحة لها ودعما لمذهبها..

---

[٨] - إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ، ج ١، ص٣٦٧-٣٦٨.

[٩] - أنظر: شرح أصول في التفسير وشرح مقدمة التفسير، محمد بن صالح العثيمين، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٠٦ - ١٠٨.

[١٠] - أخرجه الترمذي رقم ٣٢٠٤، وقال: حديث حسن صحيح. أنظر سنن الترمذي، طبعة المكنز الإسلامي، القاهرة، ج٢، ص٧٤٣.

من هنا وجدنا علماء الإسلام يلحون على مجموعة من الشروط العلمية والأخلاقية والموهبة الشخصية ـ ولو في حدها الأدنى ـ لمن يريد الوصول من خلال التدبر المثمر إلى هدايات القرآن الكريم.

فذكروا في الشروط العلمية: العلم بالكتاب والسنة وفهوم الصحابة وعلوم العربية وأصول العقيدة وقواعد الشريعة قواعد الشريعة..إلخ وذكروا شروطا أخلاقية ومواهب شخصية أيضا لتكون زادا معرفيا وآلة منهجية للمتدبر كما فعل الإمامان الزركشي في البرهان والسيوطي في الإتقان مثلا[١١] وكلامهم عن تفصيلات هذه المسائل محفوظ معروف..

غير أنني أريد هنا تسليط الضوء على **المتدبر نفسه وأهليته المعرفية والأخلاقية** خاصة، إذ القرآن في بعض معانيه هو رسالة السماء إلى الأرض، وقلب مغلف بالغفلة والجهل والمعاصي هو جهاز استقبال فاسد لا يمكنه التقاط هذه الرسالة الربانية..

وحديث علماء القرآن عن الأهلية الأخلاقية للمتدبر كانت أقل إسهابا وبسطا في كتبهم لكننا نلحظ اليوم أن حاجتنا لتركيز القول في أهلية المؤمن المتدبر أكبر وأشد لسببين إضافيين:

الأول: ثقافة الناس اليوم التي ابتعدت بهم عن حفظ آيات القرآن وتدبر معانيه ومطالعة كتب التفسير ومعرفة أهلها، فضلا عن تراجع الحد الأدنى من المعرفة اللغوية والشرعية عند عموم المسلمين، فلم تعد العامة في عالمنا الإسلامي المعاصر تكاد تفرق بين تفسير سليم وآخر سقيم، وبين مفسر كفء وآخر مخلّط، وسبب ذلك أن الجو العام الذي يعيشه المسلمون أصبحت تتقاسمه هموم البحث عن لقمة العيش، واتجاه البحث والمطالعة إلى مجالات علمية وكونية أخرى أكثر اتساقا مع عالمنا الذي تهيمن عليه الحضارة المادية، وفي كل الأحوال فإن الاهتمام بالعلوم الشرعية لم يعد يحتل المكانة المركزية التي كانت له عند المثقفين في وقت سابق، ومعلوم أن تراجع القدرة على التمييز بين الصحيح والفاسد تفسح المجال للمفسدين والمدعين واسعا ليلبسوا على الناس دينهم.

الثاني: أن هناك فرقا حاسما بين وقتنا الحاضر والعصر الذي سبقه وهو أن التفسير في القرن الماضي شهد نهضة تجديدية حقيقية على أيدي علماء عرفوا بالسبق في العلم والفضل والعمل والجهاد من أمثال محمد عبده ورشيد رضا وابن عاشور وابن باديس وغيرهم.. أما في الفترة المعاصرة فقد اختلط الحابل بالنابل إذ نجد من المفسرين من وهب حياته لله وعرف بعمق في الفهم وسعة في الاطلاع وفضل في الدين، أمثال الشيخ الغزالي ـ رحمه الله ـ كما نجد من عرف بمعصية الله ولم يصل له ركعة ومع ذلك يحشر نفسه في زمرة المفسرين؟؟

وإذ أذكر هذه الأسباب الموضوعية التي تظهر الحاجة الملحة لتحرير القول في أهلية المتدبر، لا أهدف إلى تعديل أو تجريح الأشخاص فذلك منهج لا أعتقد أنه يصلح لوقتنا الحاضر، لكن البديل عنه

---

[١١] – أنظر مثلا: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، }٢، ص ٤٧٦ والبرهان في علوم القرآن، الزركشي ، ص٤٢٢.

هو بيان الشروط الأخلاقية لمن يصلح أن يؤخذ عنه التفسير، وإشاعة ذلك بين عموم المسلمين، ثم ندع الناس ـ بعد تنويرهم ـ يختارون الصالح ويذرون الطالح.

مما ذكره علماء التفسير ضمن الشروط الاعتبارية، ما أسموه الموهبة الشخصية، وهي مزية زائدة على الشروط العلمية، ويفهم من كلامهم بأنها توفيق الله الذي يهبه لمن يشاء من عباده، وهي نوع من البصيرة والنباهة.

والقرآن بوصفه كلام الله أولا، وبوصفه كلاما عميق البلاغة، دقيق المعنى ثانيا، يحتاج المتمعن فيه إلى نباهة وفطنة خاصة يفتح الله عليه بها ما دق من معاني القرآن ومقاصده، وهدايته، والفهم والتدبر فتح من الله بحق.

وهذه الفطنة هي عطاء من الله يختلف من متدبر إلى آخر وقد تفاوت فيها الصحابة فما الظن بمن بعدهم؟ فالصحابة ليسوا سواء في درجة التوفيق في الفهم، وقول بعضهم أولى بالحق من قول بعض، وهذا ينطبق على غيرهم من باب أولى، فما من متدبر إلا غفل عن بعض أسرار القرآن مما تنبه إليه غيره، والقصد من هذا الشرط الذي وضعه العلماء هو وجوب اتصاف المتدبر بالحد الأدنى منه، والذي **يعد النزول عن مرتبته تضييع للشروط الموضوعية بسبب غفلة تقدح في المتدبر**، ورأيي أن هذه الغفلة قد جنت على التفسير في تراثنا، وكانت سببا في أخطاء وخطايا علمية كبيرة، كنقل كثير من أكاذيب بني إسرائيل، ورواية القصص الغريبة كحديث عوج بن عنق والباطلة كقصة الغرانيق ورواية الموضوعات والشائعات.. إلخ وهذه الشائعات وجدت في تفسير الآيات الكونية[١٢] كما وجدت في تفسير الآيات الشرعية.

من هنا وجب ألا يتهجم على القرآن من عرف بالغفلة، ولم يمتلك موهبة شخصية وذكاء وفطنة، فكثير من الناس يحسن قصده ويسوء عمله لعدم موافقة قوله للحق، أو لميله إلى إثبات شائعات لا تتفق وهدي الإسلام في الأسباب والسنن، أو لمعارضة قوله في الآية بما يخالف الإجماع أو القطع في الدين وهو لا يدري.. لذا وجب ـ مع حسن القصد والحد الأدنى من العلم ـ اشتراط "**الموهبة الشخصية" في المتدبر**، فهي التي تمنع من أن يلفه الشيطان في حبائله، أو ينخدع بما يقوله بعض الزنادقة والملاحدة وأرباب البدع، فيضلونه بشبههم ويلبسون عليه الحق بالباطل، فيقول بالباطل وهو واهم بأنه الحق، ومن هذا القبيل ما نقله الإمام السيوطي عن الإمام الطبري قال: "" **قد رأيت بعضهم**

---

[١٢] – المقصود بالآيات الكونية: الآيات القرآنية التي تناولت وصف الكون وسننه كالسماوات السبع والأرضين وتراكم السحب ومرج البحرين وغيرها.. وليس المقصود بها هنا المعجزات، والعبارة من المشترك اللفظي بين المعنيين.

يفسر قوله تعالى:(قل الله ثم ذرهم)[١٣] أنه ملازمة قول: الله! ولم يدر الغبي أن هذه جملة حذف منها الخبر والتقدير: الله أنزله"[١٤] أي القرآن الكريم.

ولا شك أن هذه الموهبة الشخصية للمفسر توفيق إلهي، لكنها أيضا تصقل بالرسوخ في العلم والتحلي بالتقوى، فتوفيق الله من الأسباب المعنوية في علم السنن، وليس في عطاء الله شيء خال من سبب وحكمة سواء كانا ظاهرين أو خفيين[١٥]، فنقاء السريرة وصدق الإيمان يقويان بصيرة المفسر، فيرى بنور الله، ويجعل الله له فرقانا لاسيما إن كان من العلماء العاملين المجاهدين بالقرآن في سبيل الله وشاهدنا على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

من هنا وجب على المتدبر أن يكون متحليا بمجموعة من الصفات الأخلاقية فضلا عما سبق من الشروط العلمية والموهبة الشخصية، وعلماء القرآن لم يغفلوا البحث في ذلك وإن لم يركزوا القول فيه، وقد أفرد الإمام السيوطي النوع الثامن والسبعين من أنواع علوم القرآن لما أسماه **"معرفة شروط المفسر وآدابه"**، ذكر فيه جملة من الآداب نقلا عن الطبري وابن تيمية - رحمهما الله - غير أنه ركز القول في الشروط العلمية وحدها، وجاء حديثه عن الأخلاق مقتضبا ومختصرا جدا[١٦].

وذكر الإمام الطبري ضمن عرضه الشروط العلمية للتفسير بعض الضوابط الأخلاقية في مقدمة تفسيره، فقال: **"صحة الاعتقاد أولا ولزوم سنة الدين فإن كان مغموصا عليه في دينه، لا يؤتمن على الدنيا فكيف على الدين! ثم لا يؤتمن من الدين على الإخبار عن عالم، فكيف يؤتمن في الإخبار عن أسرار الله تعالى، ولأنه لا يؤمن إن كان متهما بالإلحاد أن يبغي الفتنة، ويغري الناس بليّه وخداعه، كدأب الباطنية وغلاة الرافضة."**[١٧] قلت: وكدأب المناوئين للدين قديما وحديثا فقد جرؤوا على الحديث عن عقائد الإسلام وأخلاقه وتشريعاته عامَة، وكتبوا في علوم القرآن وتفسيره خاصة، وما لهم في ذلك من هدف إلا فتنة الناس عن دينهم[١٨].

وذكر الإمام الطبري أيضا من شروط التفسير: صحة المقصد فيما يقوله المفسر، ليلقى التسديد من الله تعالى، فقد قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾ وإنما يخلص له القول إذا زهد في

---

[١٣] - الأنعام، ٩١.

[١٤] - أنظر الإتقان ، ج٢ ، ص ٤٦٧ .

[١٥] - أنظر أطروحتي العلمية بالمكتبة الجامعية بكلية أصول الدين بالجزائر: السنن الإلهية في نهوض الحضارة ونكوصها، مبحث خصائص السنن الإلهية، مطلب ربانية السنن (غير منشور).

[١٦] - أنظر الإتقان، السيوطي، ص ٤٦٦

[١٧] - المصدر نفسه، ص ٤٦٦.

[١٨] - ويلحق بهؤلاء في زمننا، أبناء المنهج التغريبي، الذين آمنوا بأفكار وأيديولوجيات لا صلة لها بالدين وأرادوا إسقاطها على نصوص القرآن وإخضاعه لها، حتى جعلوا للقرآن تفسيرا اشتراكيا وآخر ليبراليا؟؟ أنظر ما كتبته عن المدرسة التغريبية الفصل الثاني من أطروحتي للدكتوراه.

الدنيا، ولأنه إذا رغب فيها لم يؤمن أن يتوسل بتفسير القرآن إلى عرَض يصده عن صواب قصده، ويفسد عليه صحة عمله.[١٩]

ويفهم من كلام الإمام الطبري في الفقرتين السابقتين أنه يشير إلى فئتين من الناس، قد وُجدا في عصره بالفعل وهما: الفرق الضالة التي لم يصح اعتقادها، وعلماء البلاط الذين يرغبون في الدنيا، ويتقربون بالدين إلى السلطان، وكلا الفريقين لا يصلح أن يقدم على تفسير كلام الله وبيان معانيه، لأن هؤلاء أخلاقهم مجروحة بسبب تقديم أهوائهم وشهواتهم على حق الله ورسوله عليهم.

ومما يلاحظ هنا أن أكمل الصحابة خلقا وأتقاهم لله هم الذين عرفوا ببيان معاني القرآن للناس، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس الذي دعا له رسول الله بقوله: **(اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل)**[٢٠]، فقدّم عليه السلام الدعاء له بالفقه في الدين على تعليمه التأويل، وكأنه لا تأويل للقرآن من غير فقه في الدين، والفقه في الدين لم يكن يعني الفهم المنفصل عن الالتزام والتطبيق، فضلا عن الفهم من غير تطبيق، بل كان يعني التلازم التام والالتحام العضوي بين العلم بالقرآن والعمل به، وسار الأمر على هذا النحو في قرون الفضل المتقدمة حتى جاء أمثال من وصفهم أبو القاسم محمد بن حبيب النيسابوري – رحمه الله – بقوله: **"وقد نبغ في زمننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه، لا يحسنون القرآن تلاوة، ولا يعرفون معنى الآية أو السورة، ما عندهم إلا التشنيع عند العوام، والتكثير عند الطغام لنيل ما عندهم من الحطام.. لا يأنفون عن مجالسة الجهال.. الخرق والطيش خير خصالهم، يتحلون بما ليس فيهم.. وهم من الخنى والجهل في جوف منزل."**[٢١]

وأمثال هؤلاء الذين ذكرهم الإمام النيسابوري وقبله الإمام الطبري، ممن يخلطون بين رسالتهم العلمية ورغيف الخبز، ويفكرون في الاقتراب من الحاكم والتزلف عنده أكثر مما يكترثون بالتقرب من الله سبحانه – ساءت أخلاقهم وضحل علمهم – لا يخلو منهم زمان، ومازلنا نرى في زمننا مَن هم أشنع منهم في قصورهم العلمي وانحلالهم الأخلاقي يدَعون بأنهم يفسرون القرآن الكريم، بل إن أحدهم وهو جاهل باللغة يفرق في المعنى بين المتحد ويوحد بين المختلف، وجاهل بأحكام الشرع يبيح للمرأة أن

---

[١٩] – المرجع السابق ، ص٤٦٧.

[٢٠] – رواه البخاري: كتاب فضائل الصحابة بلفظ: "علمه الكتاب"، وبلفظ: "اللهم علمه الحكمة"، ج٢، ص٧٤٠.

[٢١] – البرهان في علوم القرآن، الإمام الزركشي ، ص ٤١٨ .

تكشف نحرها وشعرها وساقيها وما فوق ذلك مما هو أدهى وأمر؟! مدّعيا بأنه جاء بنظرية جديدة في تفسير القرآن وفهمه!![٢٢]

كما ذكر أبو حامد الغزالي . أيضا . طرفا من **المؤيدات والموانع الأخلاقية** للمفسر في الإحياء فيما أسماه بـ: (**أعمال الباطن في التلاوة**)[٢٣] وهو ما يمكن **وصفه بالشروط النفسية والخلقية لفهم كلام الله أو بيان مقاصده للناس**، فعدد – رحمه الله – هذه الأخلاق بقوله:" **فهم أصل الكلام، ثم التعظيم، ثم حضور القلب، ثم التدبر، ثم التفهم، ثم التخلي عن موانع الفهم**.."[٢٤] يقصد الغزالي بفهم أصل الكلام مصدره – أي أنه من عند الله – فمن الواجب أن يتنبه المفسر إلى أنه أمام كلام الله تعالى الذي لا يمزجه باطل ولا يعتريه نقص، وهذا الأمر يقتضي تعظيم القرآن وتقديسه لأن عظمته من عظمة الله الذي أنزله، كما يتطلب حضور القلب وتهيؤ النفس والتمعن في تدبر القرآن والتواضع عند محاولة الفهم، والبعد عن الأهواء الفكرية والشهوات النفسية التي سماها موانع الفهم.

ومن عظَم القرآن هكذا، فلا شك أنه يبتعد عن التسرع في إثبات المعاني من غير تثبَت، أو تحكيم القناعات المسبقة، أو القول بالجزم في موطن الظن، فمقتضى تعظيم القرآن الرويَة والاتزان في القول.

ومن المهم جدا أن يكون واضحا عند المتدبر بأن بيان معاني القرآن العظيم هو عملية حضارية كاملة الجوانب فضلا عن كونها دراسة علمية، فالذي يتصدى لبيان مراد الله من كلامه ويحاول استنباط أحكامه وحكمه ومواعظه وتوجيهاته والوصول إلى حقائقه، يكون قد باشر مشروعا في التغيير ينير للناس طريقهم في الانتقال من الظلمات إلى النور، ومن الجاهلية إلى الإسلام، وهذا يتطلب التزاما بقيم القرآن الكريم، وفي هذا المعنى يقول الشيخ الغزالي . رحمه الله .: "**القرآن كتاب لا يستطاع عزله عن الحياة أبدا، وهل نزل إلا ليخطّئ أو يصوب من أفكارها؟ وإلا ليمحو أو يثبت من أحوالها؟ إنه كتاب الحياة المفعمة بالحركة المتجددة على الدهر، ولكنها الحياة القائمة على الحق، الدارجة على الصراط المستقيم.**"[٢٥] وقد قال الله سبحانه﴿ **يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥** ﴾ إذ لاحظ أن إظهار القرآن بالقول وإظهار النبي بالتطبيق واحد.

---

٢٢ – انظر الكتاب والقرآن، محمد شحرور وهو مليء بالأخطاء والأغلاط فضلا عن الخطايا والأغاليط انظر على سبيل المثال تفريقه بين الأسماء المختلفة للقرآن: ص ٥١–٦١ و فهمه لتعدد الزوجات ص ٥٩٧. وغيره كثير فالكتاب من أوله إلى آخره دجل وتخليط.

٢٣ – إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ج١، ص ٣٦٧.

٢٤ – المصدر السابق، ج١، ص ٣٦٧.

٢٥ – نظرات في القرآن، محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط٧، ٢٠٠٦م، ص٤–٥.

والمتدبر إذا التزم بما يجب من أخلاق وكان من العلماء العاملين فتح الله سبحانه وتعالى أمامه توفيقه وسداده وهدايته كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ فتنفتح له فتوحات قيمة من معاني القرآن الكريم وأحكامه وعبره. وكذلك فإن وقوعه فيما يجب اجتنابه من أخلاق قد يصرفه عن الفهم والقول السديد ويضع بينه وبين القرآن حجبا كثيفة تمنع عنه أنواره وهدايته وتحجزه عن الوصول إلى دقائق معانيه، بل قد يزيده القرآن ضلالا كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ ﴾

وإذا تأملنا الأخلاق التي تجب للمتدبر إجمالا نجدها – في رأيي– نوعان:

١. **أخلاق واجبة الالتزام**: كصحة المعتقد وسلامته من الشرك والابتداع، والتزام التجرد لله وصفة التقوى وغيرها.. فإن ذلك يفتح أمامه توفيق الله لفهم مراده.

٢. **أخلاق واجبة الاجتناب**، كالاستهزاء بكلام الله وعدم توقيره، والكفر بآياته والإلحاد فيها، والكبر والمراء وغيرها..

خلاصة القول أن على المتدبر أن يتماهى مع طبيعة القرآن العظيم الروحية والمعرفية، فالقرآن لا يكشف هدايته لكل من هب ودب، وهذا التماهي أو التفاعل الإيجابي مع روح القرآن يقتضي النظر إلى كتاب الله ككتاب هداية خالدة، والتخفف من الأهواء والقناعات المسبقة وجعل القرآن حاكما لا محكوما وإماما لا مأموما والبعد عن كل ما يغلف الفطرة بالحجب من الابتداع والكفر والنفاق والكبر فإنها من موانع الفهم التي تمنع التفاعل الإيجابي بين المتدبر والمتدبر فيه.

العنصر الثالث: واقعية الفهم ومنهج التدبر

كتب الأستاذ مالك بن نبي الجزائري في كتابه شروط النهضة ، نقلا عن محمد إقبال "أشد ما أثر في حياتي نصيحة سمعتها من أبي : يا بني اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك" وهذه العبارة التي بلغت التأثير الشديد في حياة فيلسوف الإسلام أوردها بن نبي وهو يعالج موضوع إمكانية تطبيق المبدأ القرآني في واقع الحياة الاجتماعية ..وخلاصة ما ذكره أن الإسلام فكرة صحيحة عن الوجود لكن تأثيرها في معتنقيها هو ما يهم الحضارة والتاريخ[٢٦].

إن القرآن عظيم بالتأكيد لأنه كلام الله تعالى لكن المسؤول عن بيان عظمته هو المسلمون حين يحسنون تحويل معانيه إلى وقائع في سياق التاريخ.. أي حين يوقظون به قلوبهم وينيرون به عقولهم، و يجتهدون في الدنيا بعظمة وحكمة وهم يطلبون الآخرة، وإلا كانوا فتنة لغيرهم لا أسباب هداية.

هذه الحقيقة بتلك الروح التي تحدث بها مالك بن نبي هي ما يتغيا منهج التدبر في آيات القرآن الكريم الوصول إليه. .الوحي الخالد لا فرق بين نزوله اليوم (في لحظة قراءته) أو قبل خمسة عشر قرنا، فدلالاته صحيحة وهداياته صالحة إلى يوم الدين ولا مبدل لكلمات الله.. لا يبدلها عمل الأفاكين ولا صروف الدهر..

إن الواقعية من خصائص النص القرآني، فالذي أنزله . وهو أعلم بما وقع وما سيقع إلى يوم الدين . قضى أن يتضمن نص القرآن عناصر الحياة الشاملة والخالدة، لذلك فنص القرآن يخاطب العوام كما يخاطب الخواص، وجاء بصيغة الإيجاز والعموم في آن معا، فلا يند عن توجيهه وهدايته شيء مهما استجد الواقع وتغير كمّا أو نوعا.

ومن مظاهر الواقعية القرآنية قبوله لتعدد المعاني، فقد أودع الله تعالى فيه من أسرار المعنى "**أقصى ما يحتمله اللفظ في أقل ما يمكن من مقدار بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها، والتي هي أسمح اللغات.**"[٢٧]

ومن مظاهرها أيضا نزول القرآن مفرقا على بضع وعشرين عاما لتتجسد معانيه في جيل كامل من حياة الأمة الإسلامية، لتصبح هذه التجربة عونا على الفهم والاستحضار، ويكون ذلك الجيل أسوة يعبر عما يقع من أصول القضايا وبعض فروعها في جيل كامل متنوع جدا فيه الإقبال والفتور، والهزيمة والنصر، والصواب والخطأ، والمواجهة والموادعة. .الخ كل ذلك حدث للصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان محلا للعبرة ودقة الفهم، والإنزال على الوقائع بعد فهم المنهج والمقصد والمعنى من كل حادثة وحدث. .من أجل هذه الواقعية حفظت أسباب النزول وأحواله وملابساته، وكل ما يدخل تحت

---

[٢٦] – شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ط٤، ١٩٨٧م، ص ٥٨

[٢٧] – التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ص٩٣.

مسمى "**تاريخ النزول**" يعبر عن واقعية هذا الكتاب، بما يبين من اتصال وثيق للقرآن بالإصلاح الاجتماعي والبعث الحضاري من جهة، وبما يدل على أن معانيه لا تحد ولا تفلس ولا تنتهي عند تلك المرحلة من تاريخه، بل تمتد لتتخطى حدود الوقائع التي أنزل القرآن متزامنا معها، وقد أدرك العلماء ذلك حين صاغوا قاعدة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولكنهم لم يهملوا فوائد السبب فقالوا بالاتفاق: إن لتقدم السبب على ورود العموم أثرا..[٢٨] وهكذا تمتد هداية القرآن في طريق طويل إلى نهاية الزمان، وعلى الطريق أنوار كاشفة هي أسباب النزول.

ومن مقتضيات واقعية القرآن الكريم وعد الله بحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ فلا معنى لحفظ لفظه إلى يوم الدين، ونفاد معانيه قبل ذلك، فليس من عادة العقلاء أن يحتفظوا بما لا يحتاجون إليه، فكيف الظن برب الناس؟؟ لذا تبقى الحاجة إلى القرآن الكريم ماسة بيقين في كل لحظة من عمر الإنسانية، ذلك مقتضى حفظ الله للقرآن، فلا يجوز للمفسر وهو يتدبر معاني القرآن أن يخالجه تصور فاسد بأن هذا النص تراث قديم نزل منذ أربعة عشر قرنا، وفي هذا المعنى قال الإمام الشاطبي: **"بعث الله من العلماء سادة فهموا عن الله وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستنبطوا أحكام الشريعة وفهموا معانيها، حتى نزلوا الوقائع التي لم تذكر على ما ذكر، وسهلوا لمن جاء بعدهم طريق ذلك، وهكذا جرى الأمر في كل علم توقف فهم الشريعة عليه، أو احتيج في إيضاحها إليه، وهو عين الحفظ [الذي تكفل الله به] وتضمنته الأدلة المنقولة".**[٢٩] من هنا تجيء واقعية القرآن الكريم التي تفرض واقعية فهمه وتنزيل.

ولو شاء الله تعالى أن يفهم المسلمون القرآن في حدود مرحلة زمنية معينة لا غير لما رتبت آياته المتلوة في المصحف الشريف من غير ذكر ترتيب النزول وذكر أسبابه في صلب الكتاب، فما معنى أن يلقي الله بكتاب إلى الناس خال من ترتيب النزول وأسبابه وأسماء الناس الذين أنزل فيهم قرآن..الخ؟ ويتلقاه المسلمون بترتيب مختلف عن ترتيب نزوله، وهو ترتيب غاية في الدقة والإحكام يتلوه المؤمنون في محاريبهم آناء الليل وأطراف النهار.. لا معنى لذلك إلا أن يتلقوه كما قدم إليهم ويتفهمون معانيه كما وردت إليهم على سبيل العموم والشمول والخلود.

لا يؤرخ الله تعالى لنزول كتابه، إنه يلقي إلينا بكلامه الخالد، لأنه الهداية المطلقة التي تتخطى حدود الزمان والمكان.

ثم إن هدايات السماء قد انقطعت منذ بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن لم يكن القرآن صالحا لهداية الناس في يومهم وغدهم فأين هو الوحي الذي يهديهم؟

---

٢٨ - البرهان، الزركشي، ص٢٨.

٢٩ - الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، ج٢، ص ٣٧١.

إن حصر معاني القرآن الكريم في حدود الواقع الذي نزل فيه خسارة فادحة للمسلمين وللإنسانية كلها، وما يحاول أن يتشبث به (التاريخانيون) أو من يسمون (اليساريين) وينسبونه زورا إلى الإمام الشاطبي بدعوى أنه قال إن الشريعة أمية وإن القرآن لا يفهم إلا على وفق معهود العرب[٣٠]، لا حجة لهم فيه وهو من باب المكابرة في تحميل كلام الشاطبي ما لا يحتمله وإلا فهل قال الشاطبي . أو أحد من علماء الإسلام . بأن للقرآن مدة صلاحية تنتهي اليوم أو غدا؟.

القرآن نص واقعي يختزن الفكر والحكمة، والواقع يتطلب فكر القرآن وحكمته، وينتج الأسئلة والإشكالات، التي يستدعيها إلى ساحة القرآن الكريم في أصله الإلهي المصدر وليس القرآن إفرازا اجتماعيا لهذا الواقع **"في ضوء هذه الحقيقة نفهم لماذا نزل القرآن منجما.. ونفهم العلاقة بين الآيات التي كان ينزل بها الوحي، وبين واقع أسباب النزول.. وإذا كان هذا حال مبادئ الشريعة وثوابتها ومقاصدها.. فإن الفروع من هذا الفكر . سواء على عهد البعثة أو فيما تلا ذلك من سنوات . قد عرفت علاقات بالواقع أكثر من الإجابات على الاستفهامات.. لقد جاءت ثمرة لتفاعل الأصول التي هي وضع إلهي، مع الواقع المعيش، في بوتقة العقل المسلم، فكانت له بالواقع علاقة أكبر وأكثر وأدق وأعمق"**[٣١]

ولعل الواقعية في منهج التدبر الأمثل هي أهم سمة فيه تساعد في الإجابة عن سؤال النهضة وعن أكثر التحديات المعاصرة.

أخص خصائص منهج التدبر الأمثل أنه منهج واقعي يعالج المشكلات الراهنة والملحة، ولا معنى له ولا جدوى منه إذا لم يكن كذلك.

إن منهج التدبر ليس مجرد جمع لآيات القرآن أو ترتيب موضوعاته، كما تفعل الفهارس والمعاجم، لأن أهم ما فيه هو الموضوع (هو القضية المدروسة)، وأعظم ما يقدمه هو العمق والنفع في معالجة القضايا واستشفاف الهدايات على ضوء القرآن الكريم..

يتبين أن القصد بالبعد الواقعي الذي يجب أن يحيط به المتدبر للقرآن على النهج الكلي المقترح له معنيان:

المعنى الأول: هو استصحاب واقع النزول وملابساته وأحواله، أي السياق الخارجي للنصوص فيستعان به على الفهم الصحيح دون الحد من إطلاق معاني القرآن كما سبق.

---

٣٠ - استغل اليساريون ما قاله الإمام الشاطبي لتمرير مقولاتهم، ولا حجة لهم فقد قرأنا في موافقات الإمام الشاطبي كلاما نفيسا يشترط فيه العلم بعلوم العرب، لكنه قصره على عصر النزول لأسباب تفسرها ظروف عصره الذي سادته الباطنية والتحم فيه العلم بالفلسفة الإغريقية، وقد عد بعض العلماء رأي الشاطبي هنا فيما يخص أمية الأمة والشريعة هفوة. أنظر ما قاله الشاطبي وما تعقبه عبد الله دراز في: الموافقات، ج ٢، ص ٣٧٩.

٣١ - معالم المنهج الإسلامي، محمد عمارة، ص٨٤-٨٥.

المعنى الثاني: هو واقعية الموضوعات والقضايا المطلوب معالجتها. ولا بد أن يكون "**الموضوع من الواقع الذي يشغل فكر الناس ويعانون بسببه من المتاعب ، ويقعون في الحرج والضيق والمشاكل ، ويجهدون أنفسهم في البحث عن الحلول في كل ما يتعلق بنظم الحياة المعيشية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية والثقافية والحربية**.."[٣٢]

بهذه الروح الواقعية وبهذه المعاصرة المفعمة بالحياة ينبغي أن يخوض المتدبر ساحة المعاني القرآنية. مستعينا بالله. ليقدم لأمته الجيد والجديد.

الخلاصة: أن القرآن العظيم كتاب هداية مفتوح على المعرفة الشرعية والإنسانية والكونية، وهو الرسالة الروحية التي تفضل بها المنعم الجبار على الناس وتكرم، وهو الترياق الشافي لآلام النفس البشرية وأدوائها، فمن تلاه بهذا المعنى وتوافرت فيه الشروط العلمية والأخلاقية وامتلك موهبة شخصية، ثم هو يقرؤه كأنه يتنزل عليه ، يعرض عليه همومه الواقعية ويستلهم منه الرشاد فإن القرآن ينفعه وينفع به أمته ويحقق فيه هدايته وإعجازه ويرى فيه عجائب القدرة.

أما من ساء ظنه بالقرآن العظيم أو نظر في بعضه وأهمل بعضه، أو أهمل قلبه حتى رانت عليه حجب المعاصي، ولفته الغفلة وأصاب منه الجهل، أو ردد الحروف والكلمات وأهمل المعاني والهدايات.. فإن الله تعالى يصرف عنه آياته فلا يستفيد منها شيئا.

وهكذا بحمد الله تتبين لنا معالم المنهج الصحيح والمثمر في عملية التدبر ضمن جدلية التفاعل الإيجابي بين الكتاب الذي يمثل الرسالة والإنسان المعني بهذه الرسالة وواقع الحياة التي هي محل الاهتداء بنور القرآن.

والله من وراء القصد.

---

[٣٢] – التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان، عبد الجليل عبد الرحيم، ص٧١

قائمة المصادر والمراجع

. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ،دار الحديث القاهرة، ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٤م.

. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الفجر للتراث،١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

. الإسلام والطاقات المعطلة، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥م.

. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م.

. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

. التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي ميزان، عبد الجليل عبد الرحيم، سلسلة التراث والوحي في الإسلام، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

. الجامع الصحيح ، محمد بن إسماعيل البخاري.

. سنن الترمذي، طبعة جمعية المكنز الإسلامي، مصر ،القاهرة.

. السنن الإلهية في نهوض الحضارة ونكوصها، يونس ملال ، مكتبة كلية أصول الدين، الجزائر العاصمة. قسم الدوريات، ٢٠٠١م- ٢٠٠٢م.

. شرح أصول التفسير لابن تيمية، محمد بن صالح العثيمين ،المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،١٤٢٦هذ ، ٢٠٠٦م.

. شروط النهضة ، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧م.

. الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق.

.كيف نتعامل مع القرآن العظيم، يوسف القرضاوي، دار الشروق، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٦م.

. معالم المنهج الإسلامي ، محمد عمارة ، دار الرشاد، القاهرة ، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨م.

. الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧.

. نظرات في القرآن ،محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر، الطبعة السابعة،٢٠٠٦م.